ألف حكاية وحكاية (٨١)

صديق فى الطريق

وحكايات أخرى

تأليف
يعقوب الشارونى

رسوم
عادل البطراوى

مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقى
الفجالة - القاهرة

صديق فى الطريق

تحكى هالة الشارونى ، مقدِّمةُ برامجِ الأطفالِ فى التلفزيون ، فتقولُ: عند مدخلِ أحدِ كبارى المُشاةِ العلويةِ بالقاهرةِ ، شاهدتُ ذاتَ مساءٍ طفلاً يبلغُ عمرُهُ حوالى تسعِ سنواتٍ ، قد ركعَ على الأرضِ ، وانهمكَ يكتبُ فى كراسةٍ وأمامَهُ كتابٌ ، وبجوارِهِ صندوقٌ به علبُ كبريتٍ ومشابكُ للغسيلِ وغيرُها.



وقفتُ أمامَهُ وسألْتُهُ: "ماذا تفعلُ؟"

قالَ: "أكتبُ واجبَ المدرسةِ."

سألْتُهُ: "هل تستطيعُ الرؤيةَ فى هذا الضَّوْءِ الضعيفِ؟"

أجابَ الصغيرُ: "الحمدُ للهِ أننى أجدُ هذا النُّورَ، ففى بيتِنا لا توجدُ كهرباءُ أصلاً."

وعدْتُ أسألُهُ: "وهل تبيعُ كثيرًا من هذه الأشياءِ؟"

قـال: "أبـى أعطـانى هـذا الصندوقَ لأبيعَ ما فيـه ، وبـالفلوسِ أشـترى بضاعـةً أخـرى ، والمكسـبُ أدفـعُ منـه مصروفـاتِ المدرسـةِ ، وأشـترى أدواتـى وملابسـى وآخـذُ مصروفى."

وقبلَ أن أفيقَ من دهشتى ، سألنى الصغيرُ عن معنى عبارةِ "هطلَ المطرُ" ، فشرحتُها له وأنا أفتحُ حقيبتى لأعطِيَهُ نقودًا ، لكنَّ الصغيرَ أبعدَ يدى وهو يقولُ: "إذا أخذْتُ نقودًا ، لابدَّ أن تشترى من عندى شيئًا."

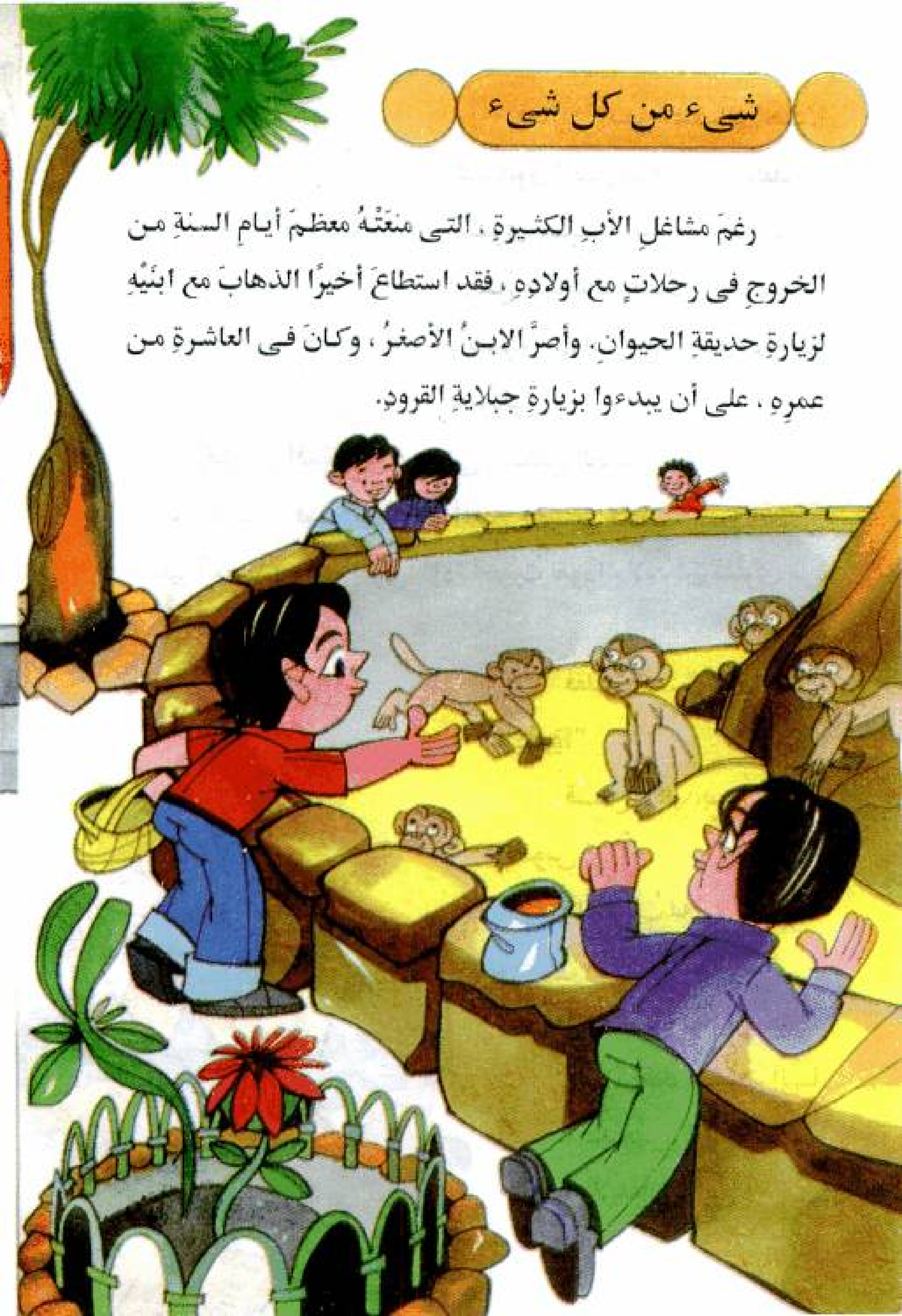
فقلْـتُ لـه: "ومـاذا عـن الهديةِ؟"

قـال: "الهديـةُ غـيرُ الفلوسِ."

فاشتَرَيْتُ له كتابًا ملونًـا وحلوى ، فقبلَها باسمًا وسألنى: "هل طريقُكِ كلَّ يومٍ من هنا؟"

قلْـتُ وقـد شـعرْتُ أننـا أصبحنا صديقَيْنِ: "كلما مررْتُ من هنا ، لابدَّ أن ترانى."





شىء من كل شىء

رغمَ مشاغلِ الأبِ الكثيرةِ ، التى منعَتْهُ معظمَ أيامِ السنةِ من الخروجِ فى رحلاتٍ مع أولادِهِ ، فقد استطاعَ أخيرًا الذهابَ مع ابنَيْهِ لزيارةِ حديقةِ الحيوانِ. وأصرَّ الابنُ الأصغرُ ، وكانَ فى العاشرةِ من عمرِهِ ، على أن يبدءوا بزيارةِ جبلايةِ القرودِ.

وطالَ وقوفُهم أمامَها ، فطلبَ أخوه ووالدُهُ أن يتحركُوا لرؤيةِ بقيةِ حيواناتِ الحديقةِ وطيورِها. لكنَّ الأخَ الأصغرَ فضَّلَ البقاءَ أمامَ الجبلايةِ ، فسمحا له بالبقاءِ أمامَ القرودِ ، وذهبا لمشاهدةِ بقيةِ الحديقةِ.

وعندَ العودةِ إلى المنزلِ ، أخذتِ الأمُّ تسألُ ابنَيها عمَّا رأياهُ في الحديقةِ ، فأجابَ الأكبرُ عن معظمِ الأسئلةِ. أمَّا الأصغرُ فقد بَقِيَ صامتًا ، ولم يُجِبْ عن أيةِ أسئلةٍ غيرِ التي تدورُ حولَ القرودِ.

وعرفَتِ الأمُّ ما حدثَ خلالَ الرحلةِ ، فقالَتْ لابنِها الأصغرِ: "لقد خسرْتَ الكثيرَ يا عزيزي باهتمامِكَ طَوالَ الوقتِ بالقرودِ وَحْدَها، وحرمْتَ نفسَكَ من التعرُّفِ على بقيةِ الحيواناتِ التي تمتلئُ بها الحديقةُ."

قالَ الابنُ: "هل الأفضلُ يا أمِّي ، أن أعرفَ شيئًا قليلاً عن كلِّ شيءٍ ، أم أن أعرفَ أشياءَ كثيرةً عن شيءٍ واحدٍ؟"

قالَ الأبُ: " قبلَ أن يتخصَّصَ الإنسانُ في معرفةِ شيءٍ مُعيَّنٍ ، من الأفضلِ ، في البدايةِ ، أن يعرفَ شيئًا عن كلِّ شيءٍ."



يوميات كل ليلة

فى مدرسةِ طارقِ بن زيادٍ للبناتِ بشبرا ، التقَيْنا بصديقاتِ المكتبةِ ، فى حوار حولَ كُتُبِ الأطفالِ.

سألَتْ "سماء": "ما هى أفضلُ طريقةٍ لتنميةِ القدرةِ على الكتابةِ الأدبيةِ؟"



قلْتُ لها: "حاولى أن تُجيبى أنتِ عن هذا السؤالِ."

قالَتْ: "بالقراءةِ."

قلْتُ: "وبالكتابةِ أيضًا."

قالَتْ: "ماذا نكتبُ؟"

قلْتُ لها: "لقد كانَتْ كتابةُ يومِيَّاتى ، منذُ بلغْتُ التاسعةَ من عمرى ، حتى وصلْتُ السابعةَ عشرةَ ، هى وسيلتى الأساسيةَ لتنميةِ قدراتى على الإبداعِ الأدبىِّ.

ففى كلِّ ليلةٍ كنْتُ أجلسُ إلى مكتبى قبلَ أن أنامَ ، لأكتبَ صفحةً أو عدةَ صفحاتٍ ، أسجِّلُ فيها أهمَّ الانطباعاتِ عمَّا حدثَ لى خلالَ اليومِ

.. أهمَّ ما قرأتُ أو سمعْتُ.. أكثرَ الأشياءِ التى تركَتْ أثرًا فى نفسى .. تحليلى لأهمِّ الشخصياتِ التى قابلتُها طَوالَ اليومِ .. مشاعرى وانفعالاتى حولَ ما واجهَنى من مواقفَ. ثمانى سنواتٍ لم أتوقَّفْ خلالَها ليلةً واحدةً عن الكتابةِ."

ثم عدْتُ أسألُ سماء: "كيف تتصوَّرينَ مدى الفوائدِ التى خرجْتُ بها من مثلِ هذه التجربةِ؟"

قالتْ: "الاحتفاظُ بالذكرياتِ."

قالَتْ كرستينا: "والاستفادةُ من الأخطاءِ."

وقالَتْ طالبةٌ ثالثةٌ: "والتدريبُ اليومِىُّ على الكتابةِ."

وقالَتْ رابعةٌ: " والاستفادةُ من كلِّ ما نرى أو نسمعُ."

وقالَتْ خامسةٌ: "وأن نُنمِّىَ القدرةَ على التعبيرِ عن النفس."

قلتُ: "هذه كلُّها إجاباتٌ صحيحةٌ ، وأعتقدُ أن كتابةَ اليومياتِ، فى مثلِ تلك السنواتِ المُبكِّرةِ ، هى المدرسةُ الكبرى ، التى يمكنُ أن نصقلَ من خلالِها القدرةَ على الإبداعِ الأدبىِّ."

المكتبة

خاتم السلطان

دعاني الأستاذُ "صلاح شريت"، المشرفُ على الثقافةِ بجنوبِ الصعيدِ، لألتقِيَ بأطفالِ محافظةِ أسيوط، وقَدَّمَني إلى سبعمائةٍ من الأصدقاءِ الصغار، الذين تجمَّعوا في قاعةِ المسرحِ الصيفيةِ، لنتحاورَ معًا.



سألوني: "ما هي أولُ قصةٍ كتبْتَها؟"

قلتُ لهم: "كنتُ في الثامنةِ أو التاسعةِ من عمري، أقومُ بتأليفِ القصصِ، وأحكيها لأصدقائي في المدرسةِ الابتدائيةِ. ثم بدأت أكتبُها.

وكانت جدتي تحكي لي حكاياتِنا الشعبيةَ، منذ بلغْتُ الرابعةَ من عمري. ومن بينِ ما حكَتْ لي، حكايةُ نشرْتُها بعد ذلك بثلاثين عامًا، باسمِ "خاتم السلطان".

كتبْتُها فى البدايةِ فـى صفحـةٍ واحـدةٍ ، ثـم كتبْتُـها تمثيليـةَ عرائسَ، مثَّلْتُها مع إخوتى فى بيتِنا ، ثم حوَّلْتُها إلى تمثيليةٍ لفريقِ التمثيلِ بالمدرسةِ الثانويةِ ، الذى كنتُ رئيسًا له.

بعدئذٍ تركْتُها سنواتٍ ، إلى أن كتبْتُها من جديدٍ كقصةٍ ، نشرَتْها لى دارُ المعارفِ فـى سلسلةِ "المكتبة الخضراء." وقد تكونُ هذه ، أولَ قصةٍ كتبْتُها."

وقلْتُ لأصدقائى الصغار: "ومنذُ شهور ، صدرَتْ طبعتُها الثامنةُ ، بينما تاريخُ أولِ كتابةٍ لها يعودُ إلى أيامِ الطفولةِ المبكرةِ ، لكنها مثلُ الكائنِ الحىِّ ، ظلَّتْ تنمو ، إلى أن حققَتْ هذه الحياةَ الطويلةَ الناجحةَ."



كل الإجابات

ذاتَ صباحٍ ، ذهبْنا إلى خيمةِ المكتبةِ ، المُقامةِ فى حديقةِ دار العلومِ بالقاهرةِ ، فى لقاءٍ مع القُرَّاءِ الصغار حولَ الكتبِ والقراءةِ ، ضمنَ برنامجِ القراءةِ للجميعِ. ودارَ الحديثُ حولَ الكتبِ التى تتحدَّثُ عن علماءِ العربِ والمُسلمينَ ، والذين سبقوا بعلومِهم واكتشافاتِهم علماءَ أوربا بمئاتِ السنينَ ، وكيف أن النهضةَ العلميةَ العربيةَ بدأتْ فى بدايةِ القرنِ التاسعِ الميلادِىِّ، لكنها لم تبدأ فى أوربا إلا مع عصرِ النهضةِ فى القرنِ الخامسَ عشرَ.

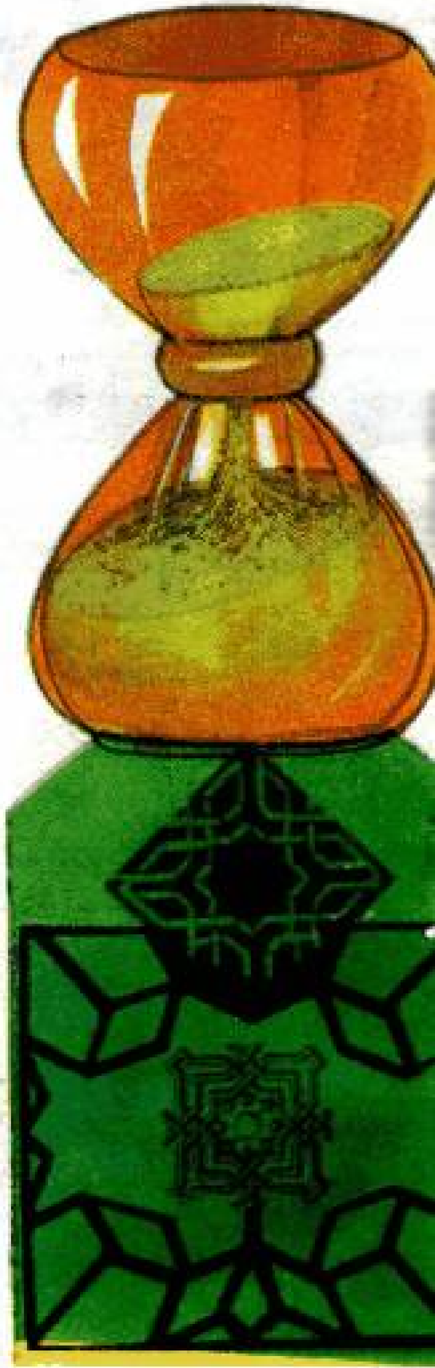
وفتحْنا كتابًا مُصوَّرًا للأطفالِ ، يُرشِدُهم إلى أهمِّ معروضاتِ المتحفِ الإسلامِىِّ بالقاهرةِ. ومن بينِ المعروضاتِ أهمُّ الإنجازاتِ العلميةِ للحضارةِ العربيةِ. وأشرْنا إلى صورةِ أحدِ معروضاتِ المتحفِ، وطلَبْنا أن يتعرَّفَ عليها الأطفالُ.



ورفعَتْ "سلوى" الصغيرةُ يدَها. كانَ عمرُها لا يتجاوزُ ستةَ سنواتٍ ، ودهشْنا لصِغَرِ سنِّها ، لذلك طلَبْنا منها أن تُجيبَ.

وفى ثقةٍ قالَتْ: "هذه هى الساعةُ الرمليةُ .. وقد رأيْتُها فى المتحفِ الإسلامِىِّ مع والدى ، وعرفْتُ منه كيفَ تعملُ.."

وانطلقَ الحاضرونَ ، الصغارُ والكبارُ ، يُصفِّقونَ فى حماسٍ لسلوى الصغيرةِ ، التى عرفَتِ الجوابَ الصحيحَ.

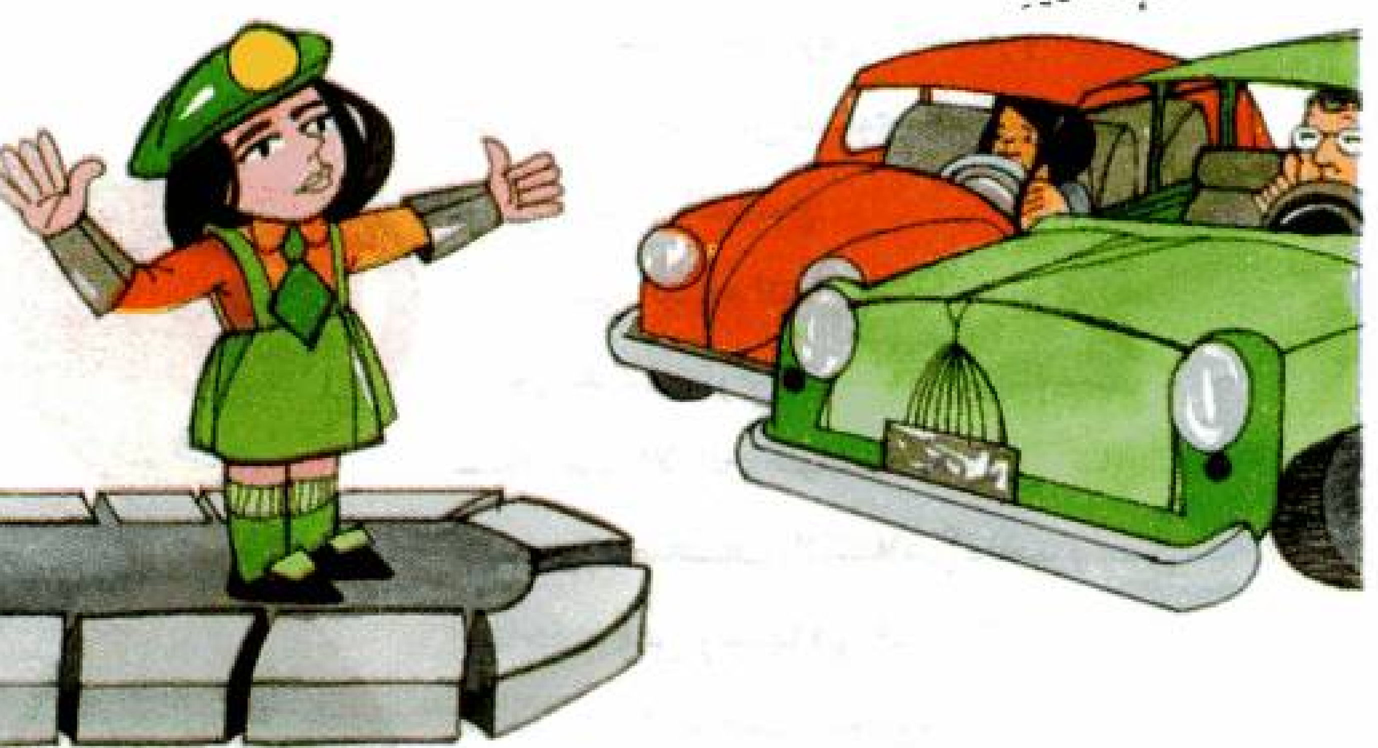


وفى اليومِ التالى ، حدَّثَتْنى والدةُ سلوى، فقالَتْ: "رجعَتْ سلوى إلى البيت ، لا نسمعُ منها إلا إلحاحَها لنأخذَها فى زياراتٍ جديدةٍ للمتحفِ الإسلامِىِّ وغيرِهِ من المتاحفِ، وعن رغبتِها فى قراءةِ الكتبِ التى تتحدَّثُ عن المتاحفِ والمعلوماتِ."

"كانَتْ سلوى تقولُ: هل رأيْتِ يا أمِّى كيف صفَّقَ لى كلُ الأطفالِ ، لأنى عرفْتُ الجوابَ الصحيحَ ؟! أريدُ أن أعرفَ كلَّ الإجاباتِ عن كلِّ الأسئلةِ."

حوادث مرور أمام المدرسة

فى نادى الطفل بعَيْنِ حلوان، التابعِ لجمعيةِ الرعايةِ المتكاملةِ، التقيتُ بستَّينَ من بناتِنا الطالباتِ، فى المدارسِ الإعداديةِ.



سألَتْنى شيماءُ: "تزايدُ حركةِ المرور بالشارعِ الذى تقعُ فيه مدارسُنا، تَسَبَّبَ أخيرًا فى عددٍ من الحوادثِ للأطفالِ، فكيف نُواجِهُ هذا الخطرَ؟"

قلْتُ لها: "بل أنا الذى أسألُكِ، ماذا تقترحينَ أنتِ وزميلاتُكِ؟"

قالَتْ ليلى: "تُقيمُ الحكومةُ نفقًا أو كوبرى."



قلتُ: "من الصعبِ مُطالَبةُ الحكوميةِ بإقامةِ الكبارى و الأنفاق التى تتكلَّفُ الملايينَ ، أمامَ كلِّ مدرسةٍ."

قالت فاطمة: "نطلب تعيين شرطى مرور ، لتنظيم عبور الأطفال للشارع."

سألت: "هل بينكن من فكرت فعلا فى كتابة اقتراح بهذا المعنى ، لتقديمه إلى مديرة المدرسة ، أو مأمور القسم ، أو إدارة الحى؟"

هنا سكتت الطالبات ، لكن مريم قطعت الصمت عندما وقفت لتقول: "أو نطالب بإنشاء مطب صناعى ، يحد من سرعة السيارات."

قلت: "ألا تلاحظن أن الاقتراحات كلها طلبات من الحكومة؟! أريد أن أسمع اقتراحا تنفذنه بأنفسكن."

وبعد لحظات من التفكير ، قالت هبة: "أنا عضوة فى فريق المرشدات بالمدرسة .. نقف بالتناوب ، لتنظيم المرور أمام مداخل مدارسنا."

وبتلقائيةٍ صفَّقَتْ كلُّ الحاضراتِ لاقتراحِ هبة ، فقد وجدْنَ فيه الحلَّ العمليَّ السريعَ ، الذى تستطيعُ كلُّ واحدةٍ منهن أن تساهمَ فيه بمجهودِها الخاصِّ.

دقائق للقراءة

كنا نتحدثُ عن تنميةِ الاتجاهاتِ والعاداتِ عندَ الأطفالِ، خاصةً فى مجالِ القراءةِ، فقالَتْ إحدى الخبيراتِ المُتخصصاتِ فى مجالِ التربيةِ:



كنْتُ أحضرُ مؤتمرًا فى الولاياتِ المتحدةِ الأمريكيةِ، فذهبْتُ لزيارةِ مدرسةٍ ابتدائيةٍ. وأثناءَ الزيارةِ، وفى تمامِ الساعةِ العاشرةِ صباحًا، دقَّ جرسُ المدرسةِ بطريقةٍ خاصةٍ..

وفوجئْتُ بكلِّ مَنْ فى المدرسةِ، من تلاميذَ ومُدرِّسينَ، يتركونَ ما فى أيديهم من كراساتٍ أو أنشطةٍ أو حديثٍ، ويتناولُ كلٌّ منهم كتابًا أو مجلةً أو صحيفةً، وينهمكُ فى المطالعةِ، بشرطِ أن تكونَ المادةُ المقروءةُ خارجَ المنهجِ المدرسِيِّ.

وسادَ المدرسةَ هدوءٌ عجيبٌ لمدةِ عشرِ دقائقَ، وقد استغرقَ كلُّ من فيها فى القراءةِ.

وعلمْتُ أن هذه الدقائقَ العشرَ تتكرَّرُ كلَّ يومٍ، على امتدادِ العامِ الدراسِيِّ. وفى نهايةِ كلِّ أسبوعٍ، تُخصَّصُ حصةٌ دراسيةٌ، لمناقشةِ أهمِّ ما قرأهُ كلُّ تلميذٍ فى خلالِ هذه الدقائقِ.



وختمَتِ الخبيرةُ حكايتَها قائلةً: هكذا ينشرونَ الوَعْىَ بأهميةِ القراءةِ، ويُنمُّونَ عادةَ القراءةِ، بدونِ أىِّ نفقاتٍ، بل فقط بالجدِّيَّةِ والالتزامِ عندَ تنفيذِ هذه الفكرةِ البسيطةِ، وبالقدوةِ التى يقدِّمُها الكبارُ للصغارِ خلالَ دقائقِ القراءةِ اليوميةِ.

برامج من العالم كله

سألتنى مجموعةُ من الطالباتِ ، عن أثرِ التدفُقِ الإعلامِيِّ فى مختلفِ وسائلِ الاتصالِ، وما ينتجُ عنه من تعرُضِنا لكثيرٍ من البرامجِ والأخبار، خاصةً التليفزيونيةَ ، التى قد لا يرضى البعضُ عن مضمونِها. فسألتُهُنَّ:

"إذا كانَ الهواءُ والبيئةُ من حولنا ملآنةً بالكائناتِ المفيدةِ والضارةِ ، فهل علاجُ هذا الأمرِ أن نُعقِّمَ البيئةَ من حولنا، أم نتعلَّمَ العاداتِ الصحيةَ ، التى تُساعِدُنا على الاستفادةِ من الموادِّ والكائناتِ المُفيدةِ ، وتجنُّبِ الموادِّ والجراثيمِ الضارةِ؟"

قُلْنَ: " بل نتعلَّمُ كيف نتجنَّبُ الضارَّ."

قلْتُ لهُنَّ: "وبعدَ سنواتٍ قليلةٍ ، ستنتشرُ أجهزةُ تليفزيون ، لن تحتاجَ إلى هوائِيٍّ خاصٍّ لالتقاطِ البرامجِ من كلِّ أنحاءِ العالمِ. لذلك فإن علينا أن نتعلَّم ، من الآنَ ، كيف نستفيدُ بما يُفيدُنا من برامجَ ، وأن نتجنَّبَ ضررَ غيرِ المُفيدِ منها. فالتربيةُ الصحيحةُ هى ، فى كثيرٍ من جوانبِها ، تنميةُ القدرةِ على الاختيارِ ، للتمييزِ بين المُفيدِ والضارِّ ."